الاستجابة المغربية للاستغاثة الاندلسية

أ.نورة بوغقال
جامعة خنشلة

ملخص

يحاول هذا المقال تحديد مفهوم وأهمية ودواعي ظهور ادب الاستغاثة في بلاد الأندلس هذا الادب الذي نتجت عنه ردود افعال مغربية اتسمت بالايجابية- على الرغم من فشلها في الحفاظ على الاندلس-وتمثلت هذه الاستجابة في الجهاد بالنفس والمال وفي استخدام الادب مطية للدفاع والتشهير لهذه القضية .

وسوف يستعرض البحث بعض النماذج التي تعبر عن تلك الاستجابات ،مركزا على فترة القرنين السابع و الثامن للهجرة اللذين تعاظم فيهما هذا المنحى الادبي اكثر من غيره .

Cet article tente de préciser la notion et l'importance et ainsi les causes de l'apparition de la littérature du secours en Andalousie. Cette littérature a entrainé plusieurs réactions maghrébines caractérisées par la positivité- malgré son échec et l' insuccès pour garder l' Andalousie- ,cet exaucement se présente dans la lutte et cette guerre sainte de l'âme ainsi que l'être et son argent et l'utilisation de la littérature comme une monture pour défendre et faire connaitre cette thèse et cet exposé démontre quelques exemples et modèles qui expriment ces réactions en insistant sur la période (7AVJ-8h) ou cette pensée littéraire est devenue plus immense et grandiose qu'une autre .

تمهيد:

عرف أدباء الأندلس بالابداع والتجديد، وبخاصة في ميدان الشعر، حيث أنهم وسعوا بعض الأغراض الشعرية حتى أصبحت تشكل موضوعات قائمة بذاتها "كشعر وصف الطبيعة"، وبرعوا في أخرى، حتى نسبت إليهم "كرثاء المدن"، كما خلقوا أنماطا شعرية جديدة تماما على الساحة الأدبية: "كالموشحات و الأزجال و أدب الاستغاثة" ، وهذا الأخير هو المقصود بالدراسة في هذا المقال.

1- ماهية أدب الاستغاثة وأهميته:

إن أدب الاستغاثة هو: تلك الرسائل و القصائد التي يستغيث فيها صاحبها الأندلسي بأخيه العربي، بغرض مناصرته ومؤازرته لقهر العدو الصليبي، ولقد اختلف فيه، إذ يوجد من الدارسين من يلحقه برثاء المدن ويجعله جزء منه (1)، ومنهم من يرى بأنه موضوع مستقل بذاته. (2)

وأيا كان الرأي المتبنى فإن أدب الاستغاثة قد اشتهر كثيرا في الاندلس لا يختلف في ذلك اثنان، فهو "...يقوم على استنهاض عزائم ملوك المغرب العربي في المحل الأول، وهمم المسلمين في شتى أقطارهم، كي يهبوا بباعث الأخوة الاسلامية لنجدة إخوانهم بالأندلس، ومد يد العون لهم في جهادهم ضد أعدائهم من نصارى الأندلس، الذين أطمعهم ضعف ملوك المسلمين بها، فراحوا يضاعفون من إغارتهم على مدنهم ويهددون أهاليها بالاكتساح الشامل "(3)، وهو نمط أدبي يتسم "...بالحماسة و الشدة وتهويل الأمر، وتجسيم الواقعة وإثارة عواطف المستغاث بهم الدينية و القومية، مصورا الحالة البائسة التي ألمت بالإسلام و المسلمين، وما يتهددهم من مخاطر الكفر، وما ينتظرهم من الويل، و الثبور الى ما هناك من معاني الاستصراخ و النجدة التي يتطلبها المقام، ويمليها الحرص على امتلاك أحاسيس ومشاعر المستصرخ بهم، لدفعهم الى الاسراع و التعجيل في العون و الاغاثة "(4)

نسخة غير قابلة للطباعة

وحول أهمية هذا الأدب،وبخاصة القسم الشعري منه يقول أحد الدارسين: "قد كان لهذا الشعر من سمو البيان، وروعة القول، وحسن التأثير، وجمال التعبير، وألاقة الصياغة، ما يجعل له بحق مكانة يجدر بها أن تشغل حيزها من الفراغ، وأن تملأ موضعها من التاريخ، لأنه شعر صدر عن عاطفة مشبوبة، ووجدان حار، وشعور صادق، وإيمان صحيح، ليست فيه صناعة المتكلف، ولا زيف الكاذب، ولا تمويه الذي لم يتجاوب مع الحوادث، ولم يستحب للدواعي...."(5). وفي نفس السياق يضيف آخر فيقول، بأن الشعراء المستغيثين يختارون".....الكلمات الجزلة و الألفاظ المؤثرة الرنانة، يصوغونها في الغالب بقواف مطلقة ذات جرس موسيقي فخم، ليؤثروا في حماس السامعين، ويهزوا أفئدتهم و أعماقهم ويداعبوا حميتهم وعواطفهم، وهو غالبا ما يكون موجها إلى أحد الملوك أو الأمراء..ممن ينتظر منهم خير عون..."(6).

وإذا كانت تلك هي ماهية أدب الاستغاثة وتلك هي أهميته، فلا بد من وجود خلفية تاريخية وسياسية تكون قد شكلت المناخ الخصب الذي أنبته. وفيما يلي نستعرض أهم الأوضاع السياسية التي سادت الأندلس وولدت هذا الأدب.

2- الخلفية السياسية لأدب الاستغاثة :

لم يكن ظهور أدب الاستغاثة اعتباطيا، بل كانت له أسباب وظروف مناسبة غذته، حيث أن القطر الأندلسي عاش حربا دائمة مع الصليبين، وذلك منذ وطأت القدم الاسلامية أرض شبه الجزيرة الأيبيرية، فكانت الحرب تضطرم أحيانا وتخمد أخرى، بين المسلمين و المسيحيين(07) لكن الأمر لم يستفحل إلا في عصر ملوك الطوائف، الذي وقعت فيه ثلاث وقائع جعلت الأندلسيين يستغيثون، بسبب ضعفهم وتناحرهم وتنافرهم(08) وهي: سقوط "بربشتر" في يد " النورمانديين " سنة (456هـ) (09)- فسقوط "طليطلة " في يد " الاسبان " سنة (487هـ) (10)- ثم تلاها سقوط " بلنسية " في يد " الكنبيطور " سنة (487 هـ) (11) .

و كان الاستنجاد في البداية موجها الى الاندلسيين أنفسهم ، ثم تحول فيما بعد الى " المرابطين " ، هؤلاء الذين لبوا النداء ، و عبروا البحر ، و هزموا " القشتاليين " في معركة " الزلاقة " سنة (479هـ) ، واسترجعوا بلنسية (12) .

و لما وهنت الدولة المرابطية ، اتجهت أنظار الاندلسيين الى " عبد المؤمن بن على الكومي " صاحب دولة " الموحدين " في المغرب" .... و كان أول اتصال له بالأندلس سنة (542هـ) ، عندما جاءته وفود من أهلها تبايعه ، و تستنجده على العدو ، الذي اغتنم فرصة الانقلاب الموحدي ، فأغار عاى أطراف البلاد "(13). واستمرت حروب الموحدين و نصارى الشمال دون انقطاع ، حتى تخللت تلك الحروب معركتان حاسمتان ، كان لهما بالغ الاثر في تاريخ الاندلس :

الاولى هي : معركة " الارك " سنة (591 هـ) و التي فاز فيها الموحدون على النصارى فوزا ساحقا ، و تم ذلك خلال فترة " حكم أبي يوسف يعقوب المنصور " (14) _ و الثانية : انهزم فيها المسلمون شر هزيمة ، و بعدها لم تقم لهم قائمة تذكر الى أن سقطت دولة الموحدين و هي معركة " العقاب " سنة (609 هـ) (15) و بعدها تهاوت مدن الاندلس الواحدة تلو الاخرى في يد النصارى ، بسبب ضعف خلفاء الموحدين المتنازعين (16) ، و بعد تلك الهزيمة أخذت الفوضى تعصف بالأندلس "...و الرعب يسربل كل شيء فيها ، و جيوش الافرنج تجوس البلاد و تشيع الدمار ، و تزرع الدروب سيوفا و خناجر ، و ذهبت صرخات الاستنجاد أدراج الرياح ..." (17) و ما بقي للأندلسيين سوى الدفاع عن أرضهم بأنفسهم ، بعد خروج بلادهم من طاعة الموحدين " سنة (665هـ) فاستولى العدو على قرطبة سنة (663هـ) بعد حصار دام بضعة أشهر ، و التي كان قد استقطعها " عبد الله البياسي " سنة (623هـ) من حكم " الموحدين " واستقل بحكمها (18) ، و سقطت " بلنسية " سنة (636 هـ) في أيدي الصليبيين ، و لم تنفعها محاولات أميرها " أبي زيان بن مردنيش " في الدفاع عنها (19) ، و الذي استصرخ " أبا زكرياء ابن حفص " صاحب الدولة " الحفصية (تونس) ، هذا الذي جاء مدده

نسخة غير قابلة للطباعة

متأخرا ، بعد تسليم المدينة صلحا (20) و كان أخيرا سقوط مدينة "اشبيلية " التي استمات أهلها في الصمود أمام الحصار الذي فرض عليها مدة سبعة عشر شهرا ، و تم ذلك سنة (646هـ) (21)

و بسقوطها طويت صفحة من تاريخ المسلمين في الاندلس ، و فتحت صفحة أخرى انكمشت فيها خارطتهم ، فانحصر نفوذهم في الاقاليم الوسطى و الجنوبية ، التي بقيت خاضعة " لمحمد بن الاحمر " هذا الذي أقام دولته على أنقاض دولة "الموحدين " و دخل في طاعته " جيان " و " بسطة"، و"وادي آش" و "ألرية"(22)، وقد استطاع " ابن الأحمر" " ..... إقناع ملك "قشتالة" من عقد صلح معه مدته عشرين سنة يدفع بموجبه الى ملك قشتالة جباية باهضة و تقف بذالك مطامع القشتاليين عند "جيان" ، التي تسقط في يدهم عام (1246م)، وبذلك يتقلص ملك " ابن الأحمر" من الناحية الشمالية..."(23)، بعد نقض "القشتاليين" لمعاهدتهم معه، فاتجهت أنظار "الغرناطيين" نحو الجنوب، بعد استيعابهم فكرة أن النصرانيين لن يتوقفوا عن الغزو حتى ينتهوا من حرب الاسترداد الكبرى، ويقضوا على آخر تواجد للمسلمين في الأندلس، "..... لذا نجد "محمد الأول" [ملك غرناطة] يوجه أنظاره الى بني مرين مستغنيا عن مهادنة النصارى، وما يمكن أن تمده به الإمارات البعيدة من مساعدة، كبني حفص وغيرهم..."(24).

ويعد عصر "بني الأحمر" " ... أسوأ عصر مني به المسلمون بالأندلس، ففيه كثرت الفتن و الانقلابات، وفيه حروب مقدسة متصلة بين أبناء الديانتين، تنحسر فيها رقعة المسلمين على أرض الأندلس شيئا فشيئا أمام المد المسيحي... وفيه [سلاطين] ضعفاء تخاذلوا أمامه [العدو] ودخلوا في طاعته و تنازلوا له عن بعض أملاكهم، وفيه صراع ضارعلى الحكم بين سلاطين بني الأحمر أدى ببعضهم في سبيل تحقيق مطامعهم الشخصية.... الى موالاة أعداء أمته وملته..."(25) وبلغت حدة صراعهم على الملك الى درجة أن يحارب الأب ابنه، وابن الأخ عمه (26) وبعد كر وفر وشد وإرخاء، انتهى الأمر بتسليم مفاتيح غرناطة للصليبيين، وجلاء المسلمين عنها (27) وبذلك انتهت أسطورة الأندلس الفردوس المفقود.

3- أدب الاستغاثة الأندلسي:

إن أدب الاستغاثة في الأندلس، لم يكن وليد عصر "ملوك الطوائف" بل كان ظهوره أسبق من ذلك بكثير، وبالتحديد في " عصر الإمارة "، حيث نجد الشاعر "عباس بن ناصح" يقول:

تململت في وادي الحجارة مسئدا اراعي نجوما ما يردن تغيرا

إليك أبا العاضي نضيت مطيتي تسير بهم ساريا و مهجرا

تدارك نساء العالمين بنصرة فإنك أحرى أن تغيث وتنصرا (28)

مستصرخا الامير الحكم على لسان امراة استغاثت به و" تلومه على تقصيره عن حمايتهم من النصارى ....وأعد [الحكم] جيشه، والتقى بالعدو في معركة كان النصر فيها حليفه...وأمر بضرب رقاب الأسرى بحضرة تلك المرأة"(29)

وتطالعنا رسالة " أبي حفص بن الحسن الهوزني" الى صديقه صاحب اشبيلية "عباد" يستجد به كي يسترجع "بربشتر" حين وقعت في أيدي النصارى لأنه الأقوى بين ملوك الطوائف حسب رأي صاحب الرسالة يقول:

فلق كتابي من فراغك ساعة وإن طال فالموصوف للطول موضع

.....وكتابي عن حالة يشيب لشهودها مفرق الوليد، كما يغبر لورودها وجه الصعيد، بدؤها ينسف الطريف التليد، ويستأصل الوالد و الوليد، تذر النساء أيامي، و الأطفال نيامي...طمت حتى خيف على عروة الايمان الانتقاض، وطغت حتى خشي على عمود الاسلام منها الانقضاض، وسمت حتى توقع على جناح الدين الانهياض....كأن الجميع في رقدة أهل الكهف او على وعد صادق من الصرف و الكشف.

نسخة غير قابلة للطباعة

أعباد ضاق الذرع واتسع الخرق ولا غرب في الدنيا إذا لم يكن شرق

.....ومازلت أعتدك لمثل هذه الجولة وزرا، وأدخرك في ملحها ملجأ وعصرا..."(30)

وهناك رسائل أخرى كثيرة في هذا العصر، يستغيث فيها الأندلسيون ببعضهم، لدرء الخطر المحدق بالأندلس(31).

وفي نفس العصر نجد رسائل من نوع آخر، يستصرخ فيها أصحابها " المرابطين" ملوك المغرب، كي ينذودوا عن حياض الأندلس، التي اشتد عليها الخناق الصليبي، وملوكها غير قادرين على الحفاظ عليها، فهذا جزء من رسالة بعث بها " المعتمد بن عباد " صاحب إمارة " اشبيلية " الى " يوسف بن تاشفين" أمير "المرابطين"، يدعوه فيها الى عبور البحر لنجدة الأندلس يقول فيها: ".....ساءت الأحوال وانقطعت الآمال وأنت أيدك الله ملك المغرب، أبيضه وأسوده، وسيد حمير، ومليكها الأكبر، وأميرها، وزعيمها، نزعت بهمتي إليك، واستنصرت بالله ثم بك، واستغثت بحرمك لتجوزوا لجهاد هذا العدو الكافر، وتحيوا شريعة الاسلام، وتذبوا عن دين محمد عليه الصلاة و السلام، ولكم عند الله الثواب الكريم"(32).

وعندما ضعف المرابطون- بعد فترة – نجد أصوات المستصرخين اتجهت نحو ملوك " الموحدين" لأنهم تمكنوا من هزيمة المرابطين في عدوة المغرب، فأحيوا أملا جديدا لدى الأندلسيين بأن هناك حاميا قويا يمكن الاستنجاد به، هؤلاء – الأندلسيين- الذين ما ينفكون يسترجعون مدينة لهم من أيدي النصارى، حتى يفقدوا أخرى، فنجد الشاعر " أبا جعفر الوقشي" البلسني يمدح الأمير " أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي " أحد ملوك " الموحدين " داعيا إياه الى الجهاد في الأندلس قائلا:

ألا ليت شعري هل يمد لي المدى فأبصر شمل المشركين طريدا

وهل بعد في النصارى بنصرة تغادرهم للمرهفات يقضى حصيدا

ويغزو أبو يعقوب في شنت ياقب يعيد عميد الكافرين عميدا

ويلقي على أفرنجتهم عبء كلكل فيتركهم فوق الصعيد هجودا

ويفتك من أيدي الطغاة نواعما تبدلن من نظم الحجول قيودا (33)

أما في القرنين " السابع " و" الثامن " للهجرة فقد تعاظم تيار الاستغاثة، بسبب الظروف السياسية المستجدة، و التي جعلت الأندلس على شفا حفرة من نار، وفيها تعددت موضوعات أدب الاستغاثة، بتعدد ووفرة إنتاج هذا الأدب حيث عمد أصحابه الى بسط المأساة بمعاناة أهلها، واستنصروا للدين ورموزه، وتطلعوا الى الرجل المنقذ الذي يحمل معه الامدادات وحاولوا كشف أسباب ضعفهم وهزيمتهم، في مقابل قوة العدو ورباطه جأشه، وفي الأخير توسلوا الواحد القهار أن يزيل عنهم المحنة التي نزلت بهم(34)

ومن الأشعار التي قالها "ابن الأبار" واصفا حال الجزيرة الذي أصبحت عليه، وهو جالس في حضرة "أبي زكرياء الحفصي" صاحب الدولة " الحفصية" (تونس) قوله:

ياللجزيرة أضحى أهلها جزرا للحادثات وأمسى جدها تعسا

في كل شارقة إلمام بائقة يعود مأتمها عند العدى عرسا

وكل غاربة إجحاف نائبة تثني الأمان حذارا والسرور أسى (35)

فسكان الجزيرة اضحوا كالجزر المذبوحة المسلوخة، كل جديد يأتي عليهم إلا وحمل التعاسة: مأتمهم أعراس لأعدائهم، وأمسياتهم نوائب، تصير الأمان حذرا، والبهجة حزنا.

فالنساء الحرائر يسبين في كل حين، بعد أن تبدلت أحوالهن، فأصبحت الأساور قيودا، و الوشي الرقيق حل محله خشن المسوح، كما تحولت عشرة الأهل الناعمة إلى معاشرة علوج الصليبيين الخشنة، وفي وصفهن يقول " الوقشي ":

نسخة غير قابلة للطباعة

ويفتك من أيدي الطغاة نواعما تبدلن من نظم الحجول قيودا

واقبلن في خشن المسوح وطالما سحبن من الوشي الرقيق برودا (36)

أما مساجد المسلمين، فكان أول ما يفعله بها الصليبيون لدى دخولهم المدن التي تسقط في أيديهم، هو تحويلها الى كنائس، لأن حرب الاسترداد الصليبية روحها عقائدية، هي حرب بين المسيحية ضد الإسلام، يقول "ابن الأبار" واصفا ذلك:

يا للمساجد عادت للعدى بيعا وللنداء غدا أثناءها جرسا

لهفي عليها الى استرجاع فائتها مدارسا للمثاني أصبحت درسا(37)

واستخدام المسجد و الاشارة الى طمس معالمه في شعر الاستغاثة أمر متعمد من قبل الشعراء، يرمون به الى إيقاظ همم ملوك العرب وسلاطينهم، وبخاصة المغاربة منهم، فلربما يبادر ملك منهم بدافع الحمية وحب الدين، فيفعل ما عجز عنه غيره، ويسترجع للأندلس عزها ومكانتها، وعموما يكون هذا المنقذ هو شخص الممدوح المستغاث به، فهاذا " ابن الخطيب" يقف أمام السلطان " ابن عنان المريني" ويذكر له صفات عله يحرك مشاعره، فيهب لنجدة الأندلس يقول:

وإذا استعنت على الزمان بفارس لبى نداءك منه خير مجيب

بخليفة الله في كفه غيث يروض ساح كل جديب

المنتقى من طينة المجد الذي ما كان يوما صرفه بمشوب(38)

ويستعظم الشعراء المستغيثون قوة الممدوح ويشيدون بها، ويطلبون منه إمداد الأندلس بها، لأنها إن عبرت البحر فستكون قاسمة الظهر لعلوج الروم، فهذا " ابن الأبار" يلح على السلطان الحفصي " أبي زكريا" في أن يدرك الأندلس بجنوده وخليه في سينيته الشهيرة، فيقول:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل الى منجاتها درسا

وهب لها من عزيزالنصر ماالتمست فلم يزل منك عز النصر ملتمسا(39)

لأن الأندلس ضعيفة، أصابها الوهن و العجز، واعترى أهلها اليأس و القنوط، وسادتهم روح الانهزامية و التسليم بخسارة الحرب، وقد يرجع السبب في ذلك الى ابتعادهم عن الدين، وشيوع المفاسد في المجتمع وذلك ما يتضمنه قول شاعر مجهول مستغيث أورده صاحب النفح:

أ نأمن أن يحل بنا انتقام وفينا الفسق اجمع والفجور

واكل للحرام ولا اضطرار اليه فيسهل الأمر العسير

ولكن جرأة في عقر دار كذلك يفعل الكلب العقور

يزول الستر عن قوم إذا ما على العصيان أرخيت الستور(40)

وفي مقابل ضعف المسلمين وقلة حيلتهم، يظهر مكر ودهاء الصليبيين المتحدين على إلحاق الأذى بمسلمي الأندلس، وفي تلك يقول "ابن العسال":

من جاور الشر لا يأمن بوائقة كيف الحياة مع الحيات في سفط(41)

فالمسلمون لم تبق لهم حيلة أمام هذا الوضع سوى الاستغاثة بإخوانهم في المغرب، وكذا التضرع الى الله عز وجل، عله يدفع عنهم البلاء ويذهب عنهم نوائب الدهرالتي ألمت بهم، وجعلت المثلث المغلوب، يصير غالبا يحاصر المسلم في كل ركن يلجأ إليه من بلاد الأندلس، وفي ذلك يقول شاعر مستصرخ مجهول:

فليل فيه هم مستكين ويوم فيه شر مستطير

نسخة غير قابلة للطباعة

ونرجوا أن يتيح الله نصرا عليهم إنه نعم النصير (42)

ومن خلال هذه الشواهد الأدبية التي استنجد فيها أصحابها بملوك المغرب، وتضرعوا الى الله تعالى يكونون قد استنفذوا كل ما في جعبتهم ليفعلوه، ليحركوا الضمائر و السواعد وعلى الرغم من ذلك الكم الهائل من الرسائل و القصائد المستنجدة إلا أنه وفي آخر المطاف سقطت الأندلس .....بلا عودة ترتجى ولا أمل يؤمل.

4- الاستجابة المغربية:

عمل المغاربة على تلبية نداء إخوانهم الأندلسيين الذين استصرخوهم، بعد ما عجزوا عن صد الاعتداءات المتكررة للصليبين على أرضهم، وتنوعت وسائل الاستجابة ما بين استخدام للسيف أو للمال وإعمال للقلم.

أ- الاستجابة الجهادية:

إن أقدم استجابة مغربية لاستصراخ الأندلسيين هي استجابة المرابطين، هؤلاء الذين عبروا البحر مرتين ليؤدبوا ملوك الفرنجة الذين سولت لهم أنفسهم الاستيلاء على بلاد المسلمين، ويصف صاحب " البيان المغرب " استرجاع المرابطين لبلنسية على يد القائد " مزدلي " فيقول: " خرج[الأذفونش] بجيوشه فتحرك الأمير مزدلي لما اتصل به ذلك من هنالك وكتب الكتائب، وعبأ المواكب في وجه الأذفونس، فظهر لأذفونش من عزمه وصرامته، وقوة جأشه ما ظهر، فكانت بين الفريقين مكافحة عظيمة عامة النهار [وعند] المغرب [أخذ] الأذفونش في الصدر الى بلسنية، وجد في إخلائها وخرج يجمع من كان فيها من الروم...وصدر الأمير "مزدلي" الى بلسنية في شهررجب فأنقذ الله بلسنية من الشرك وملكة الروم وطهرها وصرف إليها نور الاسلام...بعد ثمانية أعوام وشهر ونصف"(43) وفي سنة ثمان وتسعين وأربعمائة شاع خبر مرض يوسف بن تاشفين فخيل للروم أن الأندلس قد خلت من الرجال "....فخرج الأعداء.... فتوغلوا في نظر اشبيلية ...فغنم من تلك القرى الغنائم الموفورة والاسلاب الكثيرة.وخرج محمد سيرمن اشبيلية وتحصن في حصن هناك وتلاحقت به أجناده و امداده وبقي هنالك مرتقبا لورود ابي عبد الله بن الحاج بمعسكر اغرناطة الى أن استوفت العساكر فهرب جميع الكفرة، وولوا أمامهم فارين مهزومين ....وكاد السيف يستاصلهم ويفنيهم وما هذه الشواهد الا قليل من كثير من معارك المرابطين مع النصارى.

والموحدون أيضا كانت لهم جولات مع الصليبيين استخدموا فيها السيف نجدة للأندلس حيث نجد أميرهم عبد المؤمن قد أمر ابنه " سعيد عثمان " والي الجزيرة ومالقة وغرناطة محاصرة المرية برا وبحرا وتخليصها من النصارى "...فتقدم أبو سعيد الى المرية للجهاد بصحبة أخيه أبي حفص....وحاول ألفونسو السابع....أن ينقذ النصارى من هذا الحصار فأقبل الى نصرتهم على رأس جيش من 12 ألف مقاتل و أنظم اليه حليفه "ابن مردنيش" في قوة من 6 ألاف مقاتل، وأضطر السيد "ابو سعيد" الى استمداد الخليفة .."(45) وتم له ذلك وفي نفس الوقت انسحب "ابن مردنيش" مع قواته خوفا من العار "...وهكذا استرد الموحدون المرية" (46)، فضلا عن معركة "الأرك" التي سبق الحديث عنها أعلاه ومعارك أخرى كثيرة.

أما الحفصيون الذين ورثوا الدولة الموحدية وأسسوا دولتهم في شرق المغرب العربي، فقد لبوا نداء الشاعر "ابن الأبار القضاعي" لدى استصراخه لهم، وبخاصة بعد إلقائه سينيته المشهورة في حضرة السلطان الحفصي " أبي زكرياء"، سارع هذا الأخير لنجدة البلنسيين و " لبى دعوتهم وجهز لهم أساطيل فيها المال و الرجال، فلما وصلوا الأندلس، وجدوا العدو ملك بلنسية ثم مرسية..."(47) فلم يستطيعوا فعل شيء حيال ذلك، لأن المدينتين سلمتا دون إراقة الدماء.

وبالاتجاه نحو الغرب من دولة بني حفص تصادفنا دولة بني زيان التي كان ملكها " أبو حمو موسى الزياني" .....يتبرع في كل سنة على أهل الأندلس بالمال و الخيل و الزرع، ويرى ذلك من الجهاد في سبيل الله تحريرا لأرض الأندلس...من أزمة الاسبان، وكانت له مواقف مشرفة في انقاذ أهل الأندلس من الهلاك فقد وجه إليهم سنة (763هـ) سبعين الف قدح من

نسخة غير قابلة للطباعة

الزرع" (48)، ولقد أشاد لسان الدين بن الخطيب بهذه المساعدات التي كان يتبرع بها صاحب الدولة الزيانية" موسى الزياني" وضمنها شعره حيث قال:

أنت الذي أمددت ثغر الله بالصـ دقات تبلس كرة إبليسا

واعنت اندلسا بكل سبيكة موسومة لا تعرف التدليسا(49)

وفي عهد بني الأحمر خرج أبو يوسف المريني من مدينة فاس ملبيا طلب أهالي غرناطة، الذين استنصروه وسألوه الجهاد مرارا، وتم لهم ذلك سنة (673هـ) حيث دعا ابنه "ابا زيان" وجعله على رأس خمسة آلاف من خيرة المجاهدين، وركب البحر ونزل مدينة طريف"....ثم قصد منها الجزيرة الخضراء فغنمها وواصل السير في بلاد العدو حتى وصل إلى شريش، وهو يغنم ويفتح ما مر عليه من القرى و الحصون و البروج، وتهاوت مقاومة الاسبان أمام جيشه المظفر.... وارتفعت معنوياتهم [أهل الجزيرة] وقويت نفوسهم، وهكذا استطاع الأمير أو زيان...أن يعز الاسلام ويذل النصارى الحاقدين في الأندلس" (50) وسر الملك المريني من هذا النصر سرورا عظيما، وأخذ في ارسال "المجاهدين الى الأندلس بالخيل العتاق، و العدة الكاملة و السلاح، فكان يبعث كل يوم قبيلة من بين مرين وطوائف من المتطوعين وقبائل العرب، فلما فرغ من ارسال بني مرين و العرب أخذ في ارسال اجناده ...فكانت السفن و المراكب غاديات ورائحات آناء الليل و أطراف النهار من قصر المجاز الى طريف يزدحمون في ذلك المعبر" (51)، فلما تم عبور جيوش المغاربة الى الأندلس لحق بهم صاحب دولتهم ابو يوسف الذي نظم الجيش بمعية الاندلسيين وسار بهم الى " استجه " وهناك وقعت معركة كبرى بين جيوش المسلمين، وحشود النصارى بقيادة "دنونة " في جيش كبير في ثلاثين ألف فارس، و ستين ألف راجل(52) وكان النصر فيها للمسلمين، وعبر أبو يوسف يعقوب" الى الأندلس للمرة الثانية(677هـ) وتوغل بجيشه في أراضي قشتالة، إلا أن بني الأحمر خذلوه، بعد أن عقدوا الأحلاف مع النصرانيين مما أغضب الملك المريني فقفل راجعا الى وطنه، ولما أدرك بنو الأحمر خطأهم بمهادنة العدو عادوا فتصالحوا معه. وأجابهم مرة ثالثة الى طلبهم في الدفاع عن "طريف"، ثم عبر" أبو يوسف " مرة رابعة الى الأندلس (684هـ) وجاهد في البر و البحر حتى أرغم ملك قشتالة على طلب السلم (53)، وبعد وفاة الأمير المغربي، عاد بنو الأحمر الى التحالف مع النصارى، ثم الصلح مع المغاربة،وهكذا...حتى امتنع المغاربة عن امدادهم بالقوات مما اضطرهم الى خوض المعارك وحدهم يتقدمون مرة ويتراجعون مرات الى أن وقعت معركة "طريف" التي شاركهم فيها بنو مرين، و التي هزموا فيها شر هزيمة، وكانت محنة عظيمة لم يشهد مثلها منذ " موقعة العقاب" (54)، واستمرت هزائم المسلمين حتى ضاعت الأندلس كليا وأصبحت أرضا صليبية.

ب- الاستجابة الأدبية:

لم تقتصر نجدة المغاربة لإخوانهم في الأندلس على الجهاد بالنفس و المال فقط، بل تعدت ذلك الى الأدب، فلقد تأثر أدباء المغرب بما يحدث في الأندلس من تحرش صليبي بالمسلمين، فآزروا إخوانهم بالأدب، وحثوا ملوكهم على الجهاد في سبيل الله دفاعا عن الاسلام وعن المسلمين، وذلك كان نتيجة لتآخي أهالي العدوتين (المغرب و الأندلس) بحكم الجوار، و البعد عن الأراضي المشرقية، فضلا عن تلك الحركة العلمية و الأدبية التي كانت سائدة آنذاك، والتي أوجبت على طلاب العلم أن يسافروا هنا وهناك بغية التفقه، مما وطد وشائج المحبة و الأخوة بين المغاربة و الأندلسيين، ذلك ما ألزمهم بواجب الوقوف مع إخوانهم في محنتهم التي يمرون بها.

فنجد " عبد المؤمن بن علي الموحدي " عندما أراد العبور الى الأندلس سنة (566هـ)، كلف "ابن طفيل" أن يستصرخ قبائل "قيس بن عيلان" من العرب بأفريقيا، كي يعبروا معه البحر وينجدوا إخوانهم الأندلسيين فقال:

نسخة غير قابلة للطباعة

أقيموا صدور الخيل نحو المغارب لغزو الأعادي واقتناء الرقائب (55)

ويواصل طلب غوثهم مذكرا إياهم بأنهم هم الذين نصروا الإسلام وأن الرسول صلى الله عليه وسلم منهم فيقول:

بكم نصر الإسلام بدء فنصره عليكم وهذاعوده جد واجب

فقوموا بما قامت أوائلكم به ولا تغفلوا إحياء تلك المناقب

وقد جعل الله النبي وآله ومهديه منكم بلا عيب عائب (56)

وحين تخاذلوا في اللحاق بجيوش الموحدين العازمة على إنقاذ الأندلس، بعث إليهم بقصيدة أخرى من نظم "ابن عياش" يستصرخهم فيها هذا مطلعها:

أقيموا الى العلياء عوج الرواحل وقودوا الى الهيجاء جرد الصواهل (57)

أما في فترة حكم المرينيين نجد شاعرهم مالك بن المرحل يصف حال أهل الأندلس التي آلوا إليها، مستعطفا أميره يعقوب بن يوسف المريني، عله يرثي لحالهم فينجدهم مما هم فيه فيقول:

وأحبة بين العدا قد أصبحوا يتوقعون الموت إن لم تنجد

من مطلق العبرات إلا أنه تجري دموع جفونه لمقيد

ومفجع لا يستلد بمطعم ومروع لا يستقر بمرقد

إخواننا في ديننا ووادنا ولهم مزيد تحبب وتودد (58)

ويزيد على هذا الوصف قول "الدقون" واصفا الغصة التي أودعتها نائبة الأندلس في قلوب المسلمين:

ولا ابتليت بما في القلب من نكد فالجسم مشتعل من غير اشتعال

وكيف وبقاع الدين خالية من أرض أندلس من أجل أهوال

عمت فغمت قلوب المسلمين فيا للمسلمين من أعداء وانكال (59)

فالمساجد أصبحت عامرة برموز التثليث من صلبان ونواقيس، أما حركة الأطفال الرائحين و الغادرين على المساجد يتلون القرآن مع إطلالة كل فجر فقد سكنت هكذا يتفجع "الدقون" على مساجد الأندلس وما حدث لها فيقول:

فلا المساجد بالتوحيد عامرة إذ عمروها بناقوس وتمثال

ولا المنابر للوعاظ بارزة للأمر و النهي أو تذكير آجال

ولا المكاتب بالصبيان آنسة تتلو القرآن بأسحار وآصال

آه على الدين والدنيا وما نفعت آه اذاصدرت من قلب بطال (60)

لكن جيوش المغرب أدركت المستغيثين وسارعت لنجدتهم، هكذا يقول "ابن المرحل" معبرا عن قوة المغاربة وتحمسهم للذود عن الدين، الذي أهانته الجيوش الصليبية، و الأبيات التالية هي خير معبر عن ذلك:

لما دعا الداعي وردد صوته قمنا لنصرته و لم نتردد

نسري له بأسنة قد جردت من عضبها و الصبح لم يتجرد

و الشهب فوق الترب أسرع نقله منها وفوق السحب نحو المقصد (61)

وقد يكون ابن المرحل يرمي بهذا الوصف الى تحميس المغاربة أكثر، وحثهم على الجهاد، بمدحهم وبإظهار مواطن قوتهم، فرسم لهم هذه الصورة المفعمة بالشجاعة ونبل الأخلاق، والنابضة بالعاطفة الأخوية الصادقة التي لا يخالطها شك، وفي مقابل ذلك، يظهر الأندلسيون بضعفهم وتبرمهم عن القتال، وبخاصة تحالفهم مع الصليبيين ومهادنتهم لهم، وذلك ما تم الحديث

نسخة غير قابلة للطباعة

عنه أعلاه، مما جعل بني مرين يغضبون منهم وينسحبون من أرضهم، فقام نفس الشاعر بتقريعهم تقريعا شديدا، بسبب فعالهم تلك فقال:

لولا رجال من مرين قاتلوا عنكم لكنتم كالنساء الخرد
عهدي بجندكم الذين إذا رأوا علجا تولوا كالنعام الشرد
يتشبهون بكل أغلف كامن في زيهم وكلامهم في المشهد
وطعامهم وخلالهم وشرابهم ومناكر يأتونها وسط الندي (62)

والعدو ينخر جسد الأندلس، ويعصف بأهلها المتوانين عن الدفاع عنها، فكلما زادوا ضعفا زاد هو قوة واستبسالا في القتال يعبر " الدقون" عن ذلك فيقول:

سطا بجيش كموج البحر في عدد نعم وفي عدد من رهط أبطال
مؤيدا باجتماع المصر يتبعه شر الخلائق مسرورا بإقبال (63)

وأصبحت الهزيمة أمرا محتوما، وخسارة الأندلس لا مفر منها، ولم يبق أمام أهلها سوى الاستغاثة بالواحد القهار و التوسل إليه كي ينصر المسلمين على أعدائهم، و الضراعة بالمصطفى صلى الله عليه، وحتى المغاربة أنفسهم ايقنوا بأن تلك هي النهاية بالنسبة للأندلس، فدعوا الله كثيرا لنصرة إخوانهم وقلوبهم تنزف دما يعبر عن ذلك الشاعر المغربي " الدقون" قائلا:

في صدر سبع على التسعين زائدة شمس الجزيرة غابت بعد إكمال
وبلغ الكلب ما قد شاء من أرب اذ لم يجد ذائدا عن ديننا العالي
ليقضي الله أمرا كان قدره و الأمر لله في قول وأفعال
وقد وعظت ولو أسمعت لانتشرت سحائب الدمع لم تقلع عن إنزال
فليشتغل كل مسكين بمهجته و الله يحفظنا من كل مهوال
ثم الصلاة على المختار سيدنا محمد و الرضا عن آل أو تالي (64)

وهكذا يكون المغاربة قد أدوا واجبهم تجاه الأندلس، وأجابوا دعوة إخوانهم المستغيثين لكن قضى الله أمرا فكان مفعولا.

التهميش:

(01) ينظر: محمد مجيد السعيد...الشعر في عهد المرابطين و الموحدين بالأندلس. دار الراية للنشر و التوزيع. الأردن. ط3: 2008. ص350.

(02) ينظر: عبد العزيز عتيق. الأدب العربي في الأندلس. دار النهضة العربية لبنان د ت ص: 413 وينظر كذلك مصطفى السيوفي تاريخ الأدب الأندلسي. الدار الدولية للاستثمارات الثقافية ش.م.م – مصر – ط1: 2008.ص318. وصلاح جرار قراءات في الشعر الأندلسي، دار المسيرة للطباعة و النشر و التوزيع الاردن:ط2، ص 50.

(03)- عبد العزيز عتيق. الأدب العربي في الأندلس. ص 413.

(04)- محمد مجيد السعيد. الشعر في عهد المرابطين و الموحدين بالأندلس. ص350.

(05)- إبراهيم على أبو الخشب. تاريخ الأدب العربي في الأندلس. دار الفكر العربي مصر. د.ت.ص. 186.

(06)- محمد مجيد السعيد، الشعر في عهد المرابطين و الموحدين بالأندلس. ص350.

(07)- ينظر: محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي. منشورات جامعة سبها، ليبيا، ط1: 2001. ص من 20 الى 27.

نسخة غير قابلة للطباعة

(8)- بنظر: بطرس البستاني. أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث حياتهم آثارهم، نقد آثارهم، دار مارون عبود. لبنان، د.ت.ص24.

(09) و(10)- ينظر: إحسان عباس. تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف و المرابطين، دار الشروق- الأردن- سنة 1997. ص 143 و 147.

(11) و (12) – ينظر: ابن عذاري المراكشي. البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، تحقيق إحسان عباس. دار الثقافة – لبنان- ط2/1980/ج4، ص31 و 34 و 41.

(13)- عبد العزيز عتيق. الأدب العربي في الأندلس. ص113.

(14) ينظر تفاصيل هذه المعركةعند محمد مجيد السعيد. الشعر في عهد المرابطين و الموحدين بالأندلس ص43. و أحمد بن المقري التلمساني. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تحقيق: إحسان عباس دار صادر- لبنان- سنة 1988/م4: 381 و 382 وعلى محمد الصلابي، دولة الموحدين (سقوط الأندلس الاسلامية ومحاكم التفتيش البربرية) مؤسسة إقرأ للنشر و التوزيع و الترجمة- مصر-ط1: 2006. ص من 133 الى 140.

(15)- ينظر تفاصيل معركة العقاب عند: المقري. النفح.م1: 446 وم4: 383 وعلي محمد الصلابي. دولة الموحدين. ص159 الى 162.

(16)- ينظر تفاصيل حكم الموحدين في القرن السابع الهجري في: امنة البدوي. شعر النازحين من الأندلس الى مصر و الشام في القرن السابع الهجري، بين التأثر و التأثير، دار الأهلية للنشر و التوزيع، الأردن.ط1: 2009ص 20 و21. وعلي محمد الصلابي. دولة الموحدين ص 177.

(17)- محمد مجيد السعيد، الشعر في عهد المرابطين و الموحدين بالأندلس ص: 45.

(18)- ينظر آمنة البدوي. شعر النازحين من الأندلس الى مصر و الشام في القرن السابع الهجري، ص21.

(19)- ينظر محمد مجيد السعيد في عهد المرابطين و الموحدين بالأندلس ص64.

(20) ينظر محمد بن محمد مخلوف. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. التتمة. دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ص 139.

(21)- ينظر: عبد العزيز عتيق. الأدب العربي في الأندلس. ص115.

(22)- ينظر: عبد الله حمادي. أندلسيات غرناطة و الشعر.دار البعث- الجزائر- سنة 2004. ص76.

(23)- نفسه ص79.

(24)- نفسه ص81.

(25)- عبد العزيز عتيق. الأدب العربي في الأندلس. ص120.

(26)- المقصود هنا هوالصراع الذي دار بين السلطان أبي الحسن علي بن سعد وابنه أبي عبد الله محمد من جهة. ثم الأخير وعمه أبي عبد الله بن سعد. المعروف بالزغل. ينظر تفاصيل الصراع في: المرجع السابق ص من 121 الى 130.

(27)- ينظر تفاصيل تسليم غرناطة عند: علي محمد الصلابي. دولة الموحدين. من ص 207 الى 209.

(28)- المقري: نفح الطيب م 1: ص 160.

(29)- محمد سعيد محمد. دراسات في الأدب الأندلسي. ص56.

(30)- إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي- عصر الطوائف و المرابطين- ص144.

(31)- ينظر. المرجع السابق. ص من 145 الى 148.

(32)- محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي. ص 61 و62.

(33)- عبد العزيز عتيق. الأدب العربي في الأندلس ص 415.

نسخة غير قابلة للطباعة

(34)- هذه الموضوعات استخرجها الباحث من مدونة شعرالاستغاثة التي أجرى عليها بحثه ينظر. اسماعيل زردومي. شعر الاستغاثة للأندلس. رسالة ماجستير لجامعة باتنة. 1994م (مخطوط)

(35)- ابن الأبار. الديوان. قراءة وتعليق عبد السلام الهراس. الدار التونسية للنشر – تونس – سنة 1985. ص395.

(36)- المقري. نفح الطيب م4: 478.

(37)- ابن الأبار. الديوان. ص396.

(38)- لسان الدين بن الخطيب. الصيب و الجهام و الماضي والكهام. تحقيق محمد الشريف قاهر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر. ط1: 1973م. ص284 و 285.

(39)- ابن الأبار. الديوان. ص395.

(40)- المقري. نفح الطيب.م4: 484.

(41)- نفسه م4: 352.

(42)- نفسه م4: 486.

(43)- ابن عذارى المراكشي. البيان المغرب. ج4: ص42.

(44)- نفسه ج4: ص44 و45.

(45) و (46)- علي محمد الصلابي. دولة الموحدين ص 88 و 89.

(47)- محمد بن محمد مخلوف. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. التتمة. ص140.

(48)- محمد الطمار تاريخ الأدب الجزائري. الشركة الوطنية للنشر و التوزيع. الجزائر.د ت، ص173.

(49)- محمد سعيد محمد. دراسات في الأدب الأندلسي. ص69.

(50)- علي محمد الصلابي. دولة الموحدين. ص186.

(51)- نفسه. ص187.

(52)- ينظر المرجع نفسه ص 188-189 و 190.

(53)- ينظر نفسه ص 191 و 192.

(54)- ينظر نفسه ص من 194 الى 200.

(55)- محمد سعيد محمد. دراسات في الأدب الأندلسي. ص62.

(56)- نفسه ص 62 و 63.

(57)- نفسه ص 63.

(58)- ابن القاضي. درة الحجال في أسماء الرجال. تحقيق محمد الأحمدي أبو النور – المكتبة العتيقة – تونس. ودار التراث مصر. د ت. ج3: 22.

(59)- المقري. أزهار الرياض. تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي. مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر. مصر. سنة 1939 ج1: ص104 و 105.

(60)- نفسه: ج1: 106 – 107.

(61)- ابن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، ج3: 21.

(62)- نفسه ج3: 23.

(63)- المقري، أزهار الرياض. ج1: 105.

(64)- نفسه ج1: 108.

نسخة غير قابلة للطباعة